

AL HAYAT



الحياة

٤٢ صفحة

www.daralhayat.com

ابشرت الحياة عقلاً متعلماً ووجه ساد

عن العلاقة بين الخطاب الأخلاقي وأزمة السلطة

١٦/٢/٢٨

وليس ممارسة ديموقراطية.

وعلى رغم أن فترة حكم أنور السادات (١٩٧١ - ١٩٨١) الذي أعطى نفسه لقب «الرئيس المؤمن»، وأصدر قانوناً أسماءه «حماية القيم من العيب»، هي الأكثر تجسيداً لهذه الحال، تشهد الفترة الراهنة بعض أهم ملامحها في صورة أخرى. فقد توسع بعض أجهزة السلطة في استخدام الخطاب الأخلاقي في شكل ملحوظ، وملائحة من يراهم خارجين على الأخلاق أو الدين.

لذلك، لم يستغرب إلا القليل أن ينتهي مجلس علماء مصر وخريائتها (مجلس تخصصي رسمي) في اجتماع عقده في آخر تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي، إلى توصيات بينها «إنشاء لجنة لتنمية الضمير والأخلاق» عوضاً عن وضع خطة لإنقاذ البحث العلمي مثلاً. وقد مثل ذلك عن رعاية الحكومة ممثلة بوزارة الشباب، مشروعًا عنوانه «أخلاقتنا» يقوده رجال دين و«دعاة». وأصبح «خدش الحياة» و«ازدراء الأديان» و«نشر الرذيلة» و«انتهاك حرمة الأدب» اتهامات متكررة وكافية لحبس من يلاحقون بها عبر تغفيض مواد قانونية منبته الصلة بالعصر الحديث، ومتعارضة مع نصوص واضحة في دستور مصر الحالي. وكان آخرهم حتى الآن، الروائي أحمد ناجي الذي أودع السجن الأحد الماضي، بتهمة «خدش الحياة»!

كما توسيع الحكومة في استخدام نقابات مهنية لتقييد حرية الإبداع الفني، إذ منحت مجلس نقابتي المهن الموسيقية والمهن التمثيلية صفة «الضبطية القضائية» لـ«ممارسة دور ينافض مسوّليتها عن حماية هذه المهن، بدعوى «ضيـط الأخـلاق» أو «منع دخـول قـلة الأـدب إـلـى الـبيـوت»! والضحـبة الـآخـرـة لـهـذا التـقيـيد حتـى الأنـ، فـرقـة لمـ يـدركـ منـعـها من تقديم عرض فـنيـ، الفـرقـ بينـ موـسيـقـيـ «المـيتـالـ» وـما أـسـمـاهـ «عبـادـةـ الشـيـطـانـ»!

غير أنه في الوقت الذي تستخدم بعض أجهزة السلطة هذا الخطاب الأخلاقي لدغدغة مشاعر البسطاء وملائحة نشاطات فنية وأعمال أدبية واحتياطات منيرة دينياً، على نحو يمتزج فيه تضييق المجال العام بتدخل في الحيز الخاص للفرد، يترك بعض أشد أنصار هذه السلطة في الإعلام المرئي انتهاكات أخلاقية حقيقة وفادحة على الهواء من دون مساءلة أو محاسبة.

عـيـدـهـ، عـنـدـهـ اـحـتكـ بالـغـربـ فـيـ نـهاـيـةـ الـقـرنـ التـاسـعـ، أـنـ وـجـ مـسـلـمـينـ بـلـ إـسـلامـ»، وـيعـنـيـ ذـلـكـ أـنـ أـخـلـاقـ النـاسـ تـرـتـبـ طـرـوـفـهـ الـمـطـرـوـحـةـ أـكـثـرـ ماـ بـعـقـائـدـ أـوـ مـوـاعـذـاتـ أـخـلـاقـةـ لـمـ يـكـنـ هـنـاكـ أـكـثـرـ مـنـهـاـ فـيـ مـصـرـ، وـمـعـ ذـلـكـ، لـمـ يـجـدـ فـيـهـ عـبـدـ «الـاخـلـاقـ الـإـسـلامـيـةـ» الـتـيـ لـاحـظـهـ فـيـ أـورـوبـاـ.

وـرـبـاـ لـمـ يـتـخيـلـ مـنـ ظـلـواـ أـنـ سـلـطـةـ الـدـوـلـةـ تـمـكـنـهـ مـنـ نـشـرـ «الـاخـلـاقـ اـشـتـراكـيـةـ»، أـوـ بـنـاءـ مـاـ أـسـمـوهـ «إـنسـانـاـ اـشتـراكـيـاـ»، أـنـ مـقـصـدـهـ سـيـتـحـقـقـ فـيـ شـكـلـ مـاـ فـيـ الـنـظـامـ الرـأـسـمـالـيـ نـتـيـجـةـ الـتـفـاعـلـ الـحـرـ الـذـيـ يـدـفعـ أـنـرـيـاءـ إـلـىـ التـبـرـعـ بـعـمـعـلـهـ تـرـوـاـتـهـ لـأـغـرـاضـ اـجـتمـاعـيـةـ إـنـسـانـيـةـ وـعـلـمـيـةـ وـتـعـلـيمـيـةـ وـصـحـةـ.

لـكـنـ اـسـتـمـارـ تـدـخـلـ سـلـطـةـ الـدـوـلـةـ فـيـ الـحـيـزـ الـأـخـلـاقـيـ الـخـاصـ لـمـ يـعـدـ إـلـىـ دـعـمـ اـسـتـعـابـهـ دـرـوـسـ هـذـاـ التـارـيـخـ فـقـطـ لـكـنـ لـأـنـ الـمـصـالـحـ الـتـيـ تـحـمـيـلـهـ تـدـفـعـهـ إـلـىـ ذـلـكـ. فـمـاـ عـلـمـنـاـ التـارـيـخـ إـيـاهـ أـيـضاـ أـنـ «حرـاسـ» الـأـخـلـاقـ، الـذـينـ حـاوـلـواـ تـجـبـيدـ الـلـحـظـةـ الـتـارـيـخـيـةـ وـجـلـعـهـ أـبـديـةـ، إـنـمـاـ كـانـوـاـ حـارـسـاـ لـمـصـالـحـ غـلـوـفـهـ بـغـلـافـ أـخـلـاقـ.

وـيـزـادـ مـيـلـ سـلـطـةـ الـدـوـلـةـ إـلـىـ تـقـصـ دـورـ «حرـاسـ» الـأـخـلـاقـ كـلـمـاـ اـحـتـدـمـتـ الـأـزـمـاتـ الـاـقـتـصـاديـةـ وـالـاجـتمـاعـيـةـ وـالـسـيـاسـيـةـ، وـذـكـ سـعـيـاـ إـلـىـ تـفـريـغـ هـذـهـ الـأـزـمـاتـ مـنـ مـحـتوـاـهـ وـإـلـيـاهـ بـاـنـهـاـ نـاتـجـةـ مـنـ أـزـمـةـ الـأـخـلـاقـ وـضـمـيرـ، وـبـالـتـالـيـ تـحـمـلـ الـمـجـتمـعـ الـمـسـؤـلـيـةـ عـنـ فـشـلـ السـلـطـةـ فـيـ مـعـالـجـتهاـ.

فالـصـيـغـةـ الـأـخـلـاقـيـةـ لـلـسـلـطـةـ تـؤـدـيـ فـيـ كـثـيرـ مـنـ الـأـحـيـانـ وـظـيـفـةـ سـيـاسـيـةـ تـهـدـيـ إـلـىـ إـعـفـائـهـاـ مـسـؤـلـيـتـهاـ عـنـ الـأـزـمـاتـ الـتـيـ تـضـرـبـ الـبـلـادـ، فـيـصـبـحـ الـفـقـرـ وـالـتـهـمـيـشـ وـالـبـطـالـةـ وـالـفـسـادـ وـالـاستـغـالـلـ وـانـهـيـارـ الـتـعـلـيمـ وـتـدـنـيـ الـخـدـمـاتـ وـغـيـرـهـاـ، مـجـدـ نـتـائـجـ لـأـزـمـةـ ضـمـيرـ وـأـخـلـاقـ.

وـيـمـكـنـ تـروـيـجـ هـذـاـ الـخـطـابـ الـأـخـلـاقـيـ حـينـ يـكـونـ مـسـتـوىـ الـوـعـيـ الـعـامـ مـحـدـودـاـ، كـمـ يـسـاـمـهـ هـذـاـ الـخـطـابـ فـيـ خـفـضـ مـسـتـوىـ الـوـعـيـ أـكـثـرـ، وـإـضـعـافـ مـعـنـويـاتـ الـمـجـتمـعـ الـكـيـ يـقـبـلـ رـاضـيـاـ أـوـضـاءـ بـاـنـسـةـ بـعـنـقـهـ النـاسـ أـنـهـمـ شـرـكـاءـ فـيـ إـنـتـاجـهـاـ وـلـيـسـواـ ضـحـيـاـهـاـ.

كـمـ تـزـادـ إـمـكـانـاتـ تـروـيـجـ الـخـطـابـ الـأـخـلـاقـيـ فـيـ حالـ وجودـ سـلـطـةـ ذاتـ طـابـ أـبـوـيـ يـتـعـاطـيـ رـأسـهـاـ مـعـ النـاسـ بـوـصـفـهـ أـبـنـاءـ وـلـيـسـواـ مـوـاطـنـيـنـ، وـبـالـتـالـيـ يـصـبـحـ نـقـدـ أـحـدـهـمـ هـذـهـ السـلـطـةـ فـيـ مـثـابـةـ إـسـاعـةـ أـدـبـ

وحـيدـ عـبـدـ المـجـيدـ

ظلـتـ قـضـيـةـ مـسـؤـلـيـةـ سـلـطـةـ الـدـوـلـةـ عـنـ تـشـكـيلـ أـخـلـاقـ النـاسـ مـطـرـوـحـةـ فـيـ الـعـصـرـ الـحـدـيـثـ، عـلـىـ رـغـمـ كـلـ مـاـ حـمـلـتـ الـقـضـيـةـ مـنـ تـقـدـمـ فـيـ كـثـيرـ مـنـ مـجاـلاتـ الـحـيـاةـ، فـقـدـ بـقـيـتـ الـمعـانـيـ الـمـتـضـمـنـةـ فـيـ أـفـكـارـ تـعـودـ إـلـىـ عـصـورـ سـابـقةـ، عـنـ دـورـ السـلـطـةـ أـوـ أـجـهزـتهاـ الـدـينـيـةـ فـيـ تـرـبـيـةـ النـاسـ عـلـىـ «الـفـضـيـلـةـ»، مـؤـثـرـةـ فـيـ الـمـجـتمـعـاتـ الـمـتـخـلـفـةـ وـالـأـقـلـ، تـقـدـمـاـ خـصـوـصـاـ، فـكـلـاـ تـقـدـمـ الـمـجـتمـعـ، أـصـبـحـ مـنـظـومـةـ قـيمـهـ أـكـثـرـ حـدـاثـةـ، وـصـارـ التـميـزـ بـيـنـ الـمـجـالـاتـ الـعـامـ وـالـحـيـزـ الـخـاصـ لـلـإـنـسـانـ أـقـوىـ، وـكـلـاـ اـزـدـادـ ضـمـانـاتـ اـحـترـامـ الـحـيـزـ الـخـاصـ، قـلـتـ إـمـكـانـاتـ تـدـخـلـ السـلـطـةـ فـيـ أـخـلـاقـ النـاسـ وـالـمـجـتمـعـ، عـلـىـ رـغـمـ كـلـهـاـ لـيـسـتـ مـبـتـأـةـ الـصـلـةـ بـالـمـجـالـ الـعـامـ مـنـ حـيـثـ تـشـكـلـهـاـ عـبـرـ تـفـاعـلـ بـيـنـ الـفـردـ وـبـيـتـهـ الـاجـتمـاعـيـةـ وـالـقـانـوـنـيـةـ.

لـكـنـ الـأـمـرـ لـيـسـ كـذـلـكـ فـيـ الـبـلـادـ الـتـيـ لـمـ تـعـرـفـ مـنـ الـعـصـرـ الـحـدـيـثـ إـلـاـ قـشـورـهـ، فـتـنـلـ سـلـطـةـ الـدـوـلـةـ قـادـرـةـ عـلـىـ اـسـتـخـدـمـ مـسـالـةـ الـأـخـلـقـ وـإـنـتـاجـ خـطـابـاتـ وـعـظـيـةـ فـيـ شـانـهـاـ لـأـسـبـابـ تـخـلـفـ مـنـ حـالـ إـلـىـ أـخـرـيـ، كـنـهـ تـرـتـبـ عـادـةـ بـأـوـضـاعـ مـازـوـمـةـ أـوـ مـصـالـحـ مـبـتـغـةـ. وـيـغـيـبـ فـيـ أـحـيـانـ كـثـيرـةـ، درـسـ تـارـيـخـيـ يـفـيدـ بـأـنـهـ لـيـسـ فـيـ إـمـكـانـ السـلـطـةـ أـنـ تـغـيـرـ أـخـلـاقـ الـمـجـتمـعـ إـلـىـ أـخـلـاقـهـ، وـمـاعـظـهـ تـشـرـشـرـهـ. لـكـنـ الـأـفـضلـ عـبـرـ إـجـراءـاتـ تـخـذـلـهـاـ أـوـ مـاعـظـهـ تـشـرـشـرـهـ. فـيـ اـسـتـطـاعـهـاـ، إـذـ أـرـادـتـ أـدـاءـ وـاجـبـاتـهـ الـأـسـاسـيـةـ فـيـ قـيـادـةـ الـمـجـتمـعـ، إـذـ تـعـمـلـ لـتـحـقـيقـ تـنـمـيـةـ مـسـتـدـامـةـ يـسـاـمـهـ النـاسـ فـيـهـاـ وـيـتـعـاـلـمـونـ مـعـ مـعـطـيـاتـهـاـ، وـمـنـ ثـمـ يـنـظـمـوـنـ مـعـهـاـ ثـقـافـيـةـ وـاجـتمـاعـيـةـ، كـمـ اـقـتصـاديـ وـسـيـاسـيـ، وـبـالـتـالـيـ أـخـلـاقـيـاـ.

هـذـاـ الـأـثـرـ الـإـيجـابـيـ لـلـتـنـمـيـةـ يـتـطـلـبـ مـجاـلـاـ عـامـاـ حـرـاـ وـمـفـتوـحاـ فـيـ إـطـارـ نـظـامـ دـيمـوـقـراـطـيـ، لـكـيـ تـتـيـسـرـ فـيـ خـفـضـ مـسـتـوىـ الـوـعـيـ أـكـثـرـ، وـإـضـعـافـ مـعـنـويـاتـ الـمـجـتمـعـ الـكـيـ يـقـبـلـ رـاضـيـاـ أـوـضـاءـ بـاـنـسـةـ بـعـنـقـهـ النـاسـ أـنـهـمـ شـرـكـاءـ فـيـ إـنـتـاجـهـاـ وـلـيـسـواـ ضـحـيـاـهـاـ. كـمـ تـزـادـ إـمـكـانـاتـ تـروـيـجـ الـخـطـابـ الـأـخـلـاقـيـ فـيـ حالـ وجودـ سـلـطـةـ ذاتـ طـابـ أـبـوـيـ يـتـعـاطـيـ رـأسـهـاـ مـعـ النـاسـ بـوـصـفـهـ أـبـنـاءـ وـلـيـسـواـ مـوـاطـنـيـنـ، وـبـالـتـالـيـ يـصـبـحـ نـقـدـ أـحـدـهـمـ هـذـهـ السـلـطـةـ فـيـ مـثـابـةـ إـسـاعـةـ أـدـبـ خـلـقـيـةـ أـوـ أـيـديـلـوـجـيـاتـ شـمـولـيـةـ. وهـكـذاـ يـمـكـنـ أـنـ نـفـهـمـ مـثـلـاـ، مـغـرـىـ قـولـ الـإـمامـ مـحـمـدـ